«آيات الصّفات»

عرض موجز للمنهج الصحيح الذي يجب أن تفهم صفات اللّه عز وجل على ضوئه

كتبه الدكتور أحمد بن سعد بن حمدان

حاجة الإنسان إلى معرفة الله عز وجل

لما كان الإنسان وجد لحكمة وغاية بها يشرف وجوده ويرتقي نوعه على بقية المخلوقات وبها يحصل على سعادة الدنيا والآخرة ـ فإنه يشعر في أعماق نفسه برغبة شديدة وحرص أكيد لمعرفة تلك الغاية.

فأي إنسان لم تنكشف له تلك الحقيقة فإنه يتعرض لنكد القلب وقلق النفس وحيرة الضمير حتى ليكاد يتمزق من داخله...

هذا واقع التائهين الذين لم يعرفوا غاية وجودهم، وحكمة خلقهم وما نسمعه عن حياة هؤلاء التائهين أو نقرؤه في صحفهم وتقاريرهم يبين تلك الحقيقة ويؤكدها.

واستمع إلى بعض التقارير عن ذلك الواقع:

يقول مؤلف «**الإنسان ذلك المجهول**» الكسيس كاريل الفرنسي ـ وهو يتحدث عن الأمراض العقلية التي أصيب بها المجتمع الأمريكي (في عام **١٩٣٢** كان عدد المجانين الموجودين بالمستشفيات الحكومية = ٤٠٠٠٠٠ (**أربعمائة ألف**) مجنون كما كان عدد

ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة = ٨١٥٨٠ **(واحداً وثمانين ألفاً وخمسمائة وثمانين)** شخصاً، وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول = ١٠٩٣٠ **(عشرة آلاف وتسعمائة وثلاثين شخصاً)**...

ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة ... وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير، ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصائيات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية، وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشكلات التي يواجهها المجتمع العصري (١٧٨ ـ ١٧٩).

أرأيت يا أخي القارئ كيف أن الإنسان الذي لم يعرف غاية وجوده، أنه مصاب في أعز ما يملك ألا وهو «**عقله**» الذي يميزه عن بقية المخلوقات غير العاقلة، لأنه لم يستطع الوصول إلى «**حكمة خلقه**» رغم الحضارة المادية والكشوف العلمية التي وصل إليها...

وهذه الإحصاءات كما ترى كانت قبل خمسين عاماً، فما بالك بها الآن ... هذا إلى جانب الأعداد الكبيرة الأخرى التي تنهي حياتها بالإنتحار لعدم وصولها إلى معرفة الغاية من الوجود والحكمة من الخلق.

فلا بد إذن للإنسان ـ لكي يسعد في الدنيا والآخرة ـ من معرفة غاية وجوده في هذه الحياة الدنيا وذلك لا يعرف إلا بمعرفة الخالق الموجد سبحانه وتعالى:

وسائـل المعرفـة

للمعرفة وسائل متعددة ولكنها تنقسم إلى قسمين:

قسم ذاتي ـ أي يملكه الإنسان وهو الحواس والعقل.
وقسم خارجي منه ـ وهو الوحي: الكتاب والسنة.

وسندرس كلا القسمين بإيجاز:

أولا: القسم الذاتــي

(أ) **الحواس** ـ كل إنسان مزود بمجموعة من الحواس يستطيع أن يدرك بها جانباً واحداً من الحياة وهو: المحسوسات فقط، فالعين تبصر الأشياء المحسوسة والأذن تسمع الأصوات، والفم يتذوق المطعومات والمشروبات، والأنف يشم الروائح، واليد تلمس الأشياء فتعرف بعض مظاهرها كالحرارة والبرودة وما شابه ذلك.

هذه هي الأشياء التي يمكن أن تعرف بالحس فقط، علماً بأنها كذلك غير موثوقة فقد تتعرض أحياناً للخداع فتعطي معلومات خاطئة.

فالبصر أحياناً يرى السراب في شدة الظهيرة، ويعطي للعقل معلومات بأن هناك ماء، وهو في هذه الحالة مخدوع بهذه الرؤية.

وقد يرى الجسم المستقيم الذي يكون في الإناء الذي به ماء منكسراً وهو في الحقيقة ليس كذلك.

والحواس الأخرى قد تتعرض لشيء من ذلك الخداع فهي رغم أنها وسيلة صادقة إلا أنها قد تخدع في بعض معلوماتها.

(ب) **العقل** ـ إن من أعظم النعم على هذا الإنسان مازوده الله عز وجل به من تلك القوة العجيبة، التي لا يستحق الإنسان وصف الإنسانية إلا بها ألا وهي «**قوة التعقل**»، إذ لولاها لكان الإنسان في عداد الحيوانات.

ولما كان العقل شيئاً لا يحس، وإنما يدرك بأثره لأنه ليس شيئاً محسوساً، فإن وظيفته تتناسب مع حقيقته، فهو يدرك الجانب الثاني من الحياة وهو ما كان خارجاً عن دائرة الحس،.. وإن كان هناك تلازم بين عمل الحس والعقل، إذ لولا العقل لما كان للحواس فائدة في المعرفة.

ونستطيع أن نقول: **إن العقل يدرك بواسطة الحس كما أن الحس يدرك بواسطة العقل**، وإن كان في هذا القول تجوّز في التعريف، ولكنه أقرب إلى الحقيقة مع اتساع الدائرة التي يعمل فيها العقل ... إذ أن هناك قوى يعمل من خلالها العقل كقوة التخيل

والتصور، ولكنه رغم ذلك يبقى مرتبطاً بالحس.

فالمنافذ التي توصل المعلومات إلى العقل هي الحواس الخمس. فإذا رأى ـ مثلاً ـ في بلده جبلاً كبيراً ثم قيل له إن في البلد الفلاني جبلاً كبيراً جداً فإنه يستعيد صورة الجبل التي رآها، ثم يضخمها حتى تتناسب مع وصف الجبل الثاني.

ولو قيل لإنسان لا يعرف الفيل: إن الفيل حيوان كبير لتصور أكبر حيوانات بلده ثم قارنه به.

ولو كان للذرة الصغيرة عقل وهي لا تعرف الفيل، ثم قيل لها إن الفيل حيوان ضخم جداً، لتصورته مثل أكبر ذرة من الذر أو أكبر نملة من النمل الذي تقرب صورته من الذر.

ومهما حاول صاحب العقل أن ينفك من آثار المعلومات الحسية فإنه لا يستطيع فلو حدّث بأشياء ليس لها مثال ولا شبيه محسوس لصعب عليه تصديق ذلك.

فلو قيل له قبل ألف سنة أن الإنسان سيطير في الهواء، ويغوص في الماء، ويرى إنسان الصين إنسان الأندلس، ويسمع صوته لاتهم المتكلم بالسفه والجنون لأن ذلك لم يره ولم يسمع عنه من قبل.

ولو أن أحد الأعراب في البادية، دخل بعض المدن إبّان ظهور الأجهزة الإذاعية ثم رجع إلى قومه وأخبرهم بأنه رأى حديداً يتكلم، بدون أسنان ولا لسان ولا شفتين ولا رئة لما صدقوه ولاتهموه بالسفه والجنون.

وما ذلك إلا لأنهم لم يألفوا ذلك المنظر ولم يشاهدوه أو يشاهدوا مثله من قبل. وكذلك فإنهم لا يستطيعون أن يدركوا شيئاً على خلاف ذلك.

فهم مأسورون لحواسهم، لا يستطيعون أن يحكموا بخلاف ما عرفوه وشاهدوه. ولكن العقل رغم ذلك قادر على معرفة بعض الأمور التي لا تخضع للحس بواسطة الاستنتاج والملاحظة.

فإذا رأى ـ مثلاً ـ قطعة حديد تجذب حولها قطعاً أخرى من الحديد حكم بأن بها قوة مغناطيسية.

وإذا رأى شمعة مضاءة، حكم بأن التيار الكهربائي متصل بها ـ وإذا رأى ماء يغلي عرف أن بجانبه طاقة حرارية ... وهكذا وهكذا يصدر حكمه بوجود شيء بناء على وجود شيء آخر، هو أثر له أو سببه الملازم له. ولكنه لا يستطيع وصف ذلك المحكوم بوجوده: وهو المغناطيس والكهرباء والحرارة ـ لأنه لم يرها ولم ير شبيهاً بها فحكمه لا يستطيع مجاوزة الإثبات. هذا تعريف موجز للحواس البشرية ومدى ما يمكنها معرفته.

فالعقل إذن صالح لمعرفة خالقه عز وجل وأنه هو الخالق الموجد، ولكنه لا يستطيع معرفة صفاته وأسمائه، ولا معرفة ما يحبه وما يكرهه، وهذه أمور ليس في مقدور العقل إدراكها أو معرفتها بنفسه استقلالاً. وإذا ما حاول ذلك بنفسه فإنه يضل السبيل ويتعثر في المسير.. ثم حتى معرفته لها إنما هي معرفة وجود لا كيفية كما قال مالك رحمه الله **(الاستواء معلوم والكيف مجهول)**[1].

وقد حاول جماعة من علماء الكلام أن يصلوا إلى معرفة أسماء الله وصفاته بعقولهم، فكانت نتيجتهم الحيرة والضلال، ثم ندموا واعترفوا بقصور العقل عن ذلك، وفيما يلي نماذج من كلامهم:

يقول الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات ﴿**الرحمٰن على العرش استوى**﴾[2] ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**﴾[3].

---

(١) راجع كتاب «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (رقم: ٦٦٤).
(٢) طه، الآية ٥.
(٣) فاطر، من الآية ١٠.

واقرأ في النفي ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾[2].

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

ويقول الجويني:

(لقد خضت البحر الخضم وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لفلان وها أنا أموت على عقيدة أمي)[3].

فهذه النماذج تؤكد عن تجربة، أن العقل لا يستطيع معرفة هذه الحقيقة بنفسه مستقلاً، فلا بد إذن من وسيلة أخرى تكون مأمونة من الخطأ، معصومة من الزلل .. وليس هناك إلا وسيلة واحدة أنعم الله بها على هذا الإنسان **ألا وهي وسيلة «الوحي»** التي عرف بها الأنبياء ربهم وعرّفوا الناس به سبحانه وتعالى. وهذا هو القسم الثاني من وسائل المعرفة.

ثانياً : القسم الخارجي (الوحي)

رأينا من قبل كيف أن الوسائل البشرية عاجزة، عن معرفة أسماء الله وصفاته عز وجل، فكانت وسيلة الوحي ضرورة لبلوغ تلك المعرفة، وهذا ما أنعم الله به على البشرية، حيث تعهدها بالأنبياء والرسل لتعريفها بخالقها، والحكمة من إيجادها، ثم ختمهم بسيد المرسلين محمد ﷺ، فأنزل عليه كتابه المبين يبين للناس تلك الأمور التي لا يستطيعون معرفتها بأنفسهم استقلالاً، فمن اتَّبعه هُدِيَ في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه ضل في الدنيا والآخرة.

منهج القرآن الكريم في عرض الصفات

أسلوب القرآن الكريم في بيان صفات الله عز وجل، دائر بين النفي والإثبات فينفي

---

(١) الشورى، من الآية ١١.

(٢) طه، من الآية ١١٠.

(٣) راجع الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٠ ـ ١١ من مجموع الفتاوى ج٥ ترتيب القاسمي.

عنه ما لا يليق به، ويثبت ما يليق به، من كمال الصفات. ولكن الصفات الثبوتية في القرآن الكريم أكثر من الصفات السلبية، إذ أن الوصف بالصفات الثبوتية أكثر إيضاحاً من الوصف بالصفات السلبية. فلو وصفنا إنساناً بأنه: ليس حماراً ولا قِطّاً ولا أسداً ولا ذئباً ولا جبلاً ولا حجراً .. ولا ... ولا .. وهكذا فإننا لن نستطيع إفهام السامع بما نريد.

ولكننا لوقلنا: إنه جسم مخلوق متحرك ناطق حساس مفكر له يدان ورجلان وعينان ... إلى آخر تلك الأوصاف، لكان هذا أقرب إلى البيان. ـ ولله المثل الأعلى.

ولهذا فإن المُطَّلعَ على القرآن الكريم يرى ذلك المنهج واضحاً جلياً.

* **ففي الإثبات:**

يقول عز وجل: ﴿ **الله لآ إله إلا هو الحي القيوم** ﴾[1] ويقول ﴿ **قل هو الله أحد، الله الصمد** ﴾[2] ـ ويقول ﴿ **وهو العليم الحكيم** ﴾[3] ﴿ **وهو العليم القدير** ﴾[4] ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾[5] ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾[6] ... إلى آخر ما هنالك من الآيات التي تبين ما لربنا سبحانه وتعالى من كمال الصفات.

* **وفي النفـي:**

يقول تعالى ﴿ **لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد** ﴾[7].

ويقول ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾[8] وقوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[9]. ويقول ﴿ **لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾[10].

---

(١) البقرة، من الآية ٢٥٥.
(٢) الإخلاص، الآيتان ١ ـ ٢.
(٣) التحريم، من الآية ٢.
(٤) الروم، من الآية ٥٤.
(٥) الشورى، من الآية ١١.
(٦) سورة ابراهيم، من الآية (٤).
(٧) الإخلاص، الآيتان ٣ ـ ٤.
(٨) مريم، من الآية ٦٥.
(٩) سبقت.
(١٠) البقرة، من الآية ٢٥٥.

هذا هو المنهج القرآني في بيان الصفات[1].

وهو عز وجل يريد أن يعرِّف عباده به بنفسه، إذ لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريقه عز وجل وحده.

وفي هذا التعريف بيان لعظمته وقدرته وغناه وكماله ورحمته ومغفرته وكبريائه وعزته وعلمه وحكمته.

كما فيه بيان لمحبته وبغضه ورضاه وغضبه وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه وأنه يفعل ما يريد ويخلق ما يشاء ويختار وأنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون .. إلى غير ذلك من صفاته سبحانه وتعالى.

وقد توهم بعض المنتسبين إلى الإسلام أن إثبات هذه الصفات لله عز وجل يوهم التشبيه، حيث أنها أوصاف مشتركة بين الخالق والمخلوق.

وهذا من ضلال فهمهم وسقم تفكيرهم، إذ لا يلزم من الاشتراك في الإسم الاشتراك في المسمى، ولا من الاشتراك في الصفة التماثل في الموصوف، وإذا كان من المعلوم بالضرورة، أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود، أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه واتفاقهما في اسم عام لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الإسم عند الإضافة والتخصيص والتقييد ولا في غيره فلا يقول عاقل ـ إذا قيل: إن العرش شيء موجود وأن البعوض شيء موجود ـ إن هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً كلياً هو مسمى الإسم المطلق. وإذا قيل: هذا موجود وهذا موجود فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره مع أن الإسم حقيقة في كل منهما وليس مجازاً.

ولهذا سمى الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره.

وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت

---

(١) ولو حسبت آيات الإثبات لزادت على ألف آية مع أن آيات النفي لا تبلغ خمسين آية.

عن الإضافة والتخصيص.

ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده ـ عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص ـ اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلاً عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص.

فقد سمى الله نفسه حياً فقال ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾[1] وسمى بعض عباده حيا فقال: ﴿ **يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي** ﴾[2]...

وكذلك سمى نفسه ﴿ **عليما حكيما** ﴾[3] وسمى بعض عباده عليماً فقال: ﴿ **وبشروه بغلام عليم** ﴾[4].

وسمى نفسه سميعاً بصيراً فقال: ﴿ **إن الله كان سميعاً بصيرا** ﴾[5] ـ وسمى بعض عباده سميعاً بصيرا فقال: ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا** ﴾[6] وليس الحي كالحي ولا العليم كالعليم ولا السميع البصير كالسميع البصير.

وأما أسماء صفاته فنحو قوله: ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه** ﴾[7]. وقال عن عباده ﴿ **فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾[8] ووصف نفسه بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال: ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾[9] ـ ووصف نفسه بالرضا ـ ووصف عبده بالرضا فقال: ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[10] وليس العلم كالعلم ولا المحبة كالمحبة ولا الرضا كالرضا.[11].

---

(١) سبقت.
(٢) الروم من الآية ١٩.
(٣) النساء من الآية (١١.
(٤) الذاريات من الآية ٢٨.
(٥) النساء من الآية ٥٨.
(٦) الإنسان، الآية ٢.
(٧) البقرة من الآية ٢٥٥.
(٨) غافر من الآية ٨٣.
(٩) المائدة من الآية ٥٤.
(١٠) المائدة من الآية ١١٩.
(١١) راجع التدمرية، (١٠).

وبهذا الإيجاز يتبين الفرق بين أسماء الله وصفاته وبين أسماء خلقه وصفاتهم. فكما أن ذاته عز وجل لا تشبه الذوات فكذلك أسماؤه وصفاته لاتشبه أسماء خلقه وصفاتهم.

ثمرة معرفة أسماء الله وصفاتـه

إن الله عز وجل عندما عرفنا بنفسه الكريمة عن طريق وحيه إلى أنبيائه ورسله، أراد منا أن نعبده حق عبادته فتؤدي تلك الأسماء والصفات في حياة الإنسان ثمار العبودية الحقة، التي يسعد بها في الدنيا والآخرة.

فإن العلم علمان:

ـ علم بالله.

ـ وعلم بشرعه.

والعلم به عز وجل هو رأس الأمر، لأنه يكسب القلب تعظيماً وتقديراً لخالقه ومحبة وإنابة إليه وخوفاً ورجاء إلى آخر تلك العبودية التي تجعله يعبد الله كأنه يراه وهذا أعلى درجات اليقين.

والعلم بشرعه الذي أنزله على رسوله يوجه تلك العبودية السابقة، ويبين لها الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

فإذا انفردت إحداهما عن الأخرى، ضل الإنسان وأعرض كما هو حال اليهود والنصارى. ومعرفة الإنسان بأسماء خالقه وصفاته توجه حياته وجهة صحيحة مستقيمة.

فإذا عرف أن الله عز وجل هو «**الملك**» الذي بيده الأمر كله والناس خاضعون لسلطانه وقهره فإنه يذل له وحده ولا يخشى أحداً سواه.

وإذا عرف أن الله عز وجل هو «**الرزاق**» فإنه يتجه إليه وحده في طلب رزقه، فلا يذل لأحد من خلقه ابتغاء رزقه.

وإذا عرف أن الله «**سميع بصير**» فإنه يجتنب معاصيه خوفاً منه لأنه يراه ويطلع على حاله ولا يخفى عليه شأن من شئونه.

وإذا عرف ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[1] فإنه يتقرب إليه بذلك العمل حتى ينال محبته ورضوانه.

وهكذا .. وهكذا لكل اسم من أسمائه تعالى عبودية خاصة تقود صاحبها إلى خالقه وبارئه قال تعالى: ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾[2] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها)[3].

وقال عليه الصلاة و والسلام: (إن لله تسعة وتسعين اسما ـ مائة إلا واحدا ـ من أحصاها دخل الجنة)[4] رواه البخاري.

والله سبحانه وتعالى لم يعرفنا بأسمائه وصفاته لنجعل منها ميداناً للجدل والخلاف وإنما لتوجيه حياتنا بها والعمل بمقتضاها.

الصحابة وآيات الصفات

لقد مكث القرآن الكريم يتنزّل على رسول الله ﷺ والصحابة يسمعونه منه وهو مملوء بآيات الصفات فلم يشكل عليهم معناها، أو المراد منها ولم ينقل عن أحد منهم أنه خاض في شيء منها طوال هذه الفترة.

قال ابن القيم: (وقد تنازع الصحابة رضي الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً ـ ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال)[5].

وقال المقريزي: (ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله

---

(١) البقرة، من الآية ٢٢٢.

(٢) الأعراف، من الآية ١٨٠.

(٣) انظر مدارج السالكين (١ : ٤٢٠) وراجع فتح الباري/ ١١ : ٢٢٥ و١٣ : ٣٧٨ و(ومعارج القبول/١ : ٨٤).

(٤) رواه البخاري (كتاب التوحيد ـ ٦٤١٠).

(٥) راجع أعلام الموقعين (١ : ٤٩).

عنهم على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف به الرب سبحانه نفسه الكريمة في القرآن الكريم وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات.

نعم ولا فرّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة وساقوا الكلام سوقاً واحداً من غير تعطيل ولم يتعرض ـ مع ذلك ـ أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت.

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة)[1].

هذا ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، وذلك لأنهم فهموا المراد من كلام الله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، ثم تابعهم على ذلك أعلام الأمة وأئمتها فلم يردوا شيئاً من الصفات أو يؤولوها على غير معناها، لأنها لم توافق العقل لعلمهم بأن العقل ليس مؤهلاً لمحاكمة الوحي الذي جاء من عند الله عز وجل.

ولم يحدث نزاع في آيات الصفات طوال القرن الأول، حتى بداية القرن الثاني حيث ظهر فيه رواد الضلال والفتنة فخرجوا على منهج الأمة وابتدعوا في دين الله بدعاً كان لها أثرها فيما بعد.

رواد المناهج المنحرفة

في أوائل القرن الثاني ظهر أربعة أشخاص من رواد المذاهب المنحرفة في فهم العقائد الإسلامية وهم:

---

(١) الخطط (٤: ١٨٠).

(١) **واصل بن عطاء** (ت: ١٣١ هـ) مؤسس مذهب الاعتزال.

(٢) **الجعد بن درهم** (ت: ١٢٤ هـ) وهو أول من أنكر كلام الله عز وجل وصفاته.

قال السيوطي: إن الجعد هو: (أول من تفوه بكلمة خبيثة في الاعتقاد ـ يعني في الإسلام ـ .. فقال: بأن الله لا يتكلم). وقد قتله أمير الكوفة خالد بن عبدالله القسري ـ يوم عيد الأضحى[١].

(٣) **الجهم بن صفوان** (١٢٨ هـ) وقد خلف الجعد في دعوته فقتله سلم بن أحوز في أصبهان[٢].

(٤) **مقاتل بن سليمان** (١٥٠ هـ)، وقد كان مؤسس مذهب المشبهة، كما قال أبو حنيفة رحمه الله (**أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل، ومقاتل مشبه**)[٣].

فهؤلاء أربعة كانوا زعماء التأويل والتشبيه فتكون بعد ذلك منهجان منحرفان على أقوالهم.

الأول: مذهب الاعتزال الذي يقوم على التأويل ورد كل نص لايوافق عقولهم، أو تأويله على خلاف ظاهره، كما قال زعيم الاعتزال في القرن الخامس القاضي عبد الجبار ـ قال: (وأما ما لا يعلم كونه صدقاً ولا كذبا فهو كأخبار الآحاد، وما هذا سبيله يجوز العمل به إذا ورد بشرائطه).

فأما قبوله فيما طريقه الإعتقادات فلا، إلا إذا كان موافقاً لحجج العقول واعتقد موجبه لا لمكانه بل للحجة العقلية فإن لم يكن موافقاً لها، فإن الواجب أن يرد وأن يحكم أن النبي لم يقله، وإن قاله فإنما قال على طريق الحكاية عن غيره، هذا إذا لم يحتمل التأويل، إلا بتعسف فأما إذا احتمله فالواجب أن يتأول....)[٤].

ونحن لا ندري أيّ عقل هو الذي يحاكم إليه النص الشرعي، لأن العقول تتفاوت،

---

(١) كتب الفرق والملل.
(٢) كتب الفرق والملل.
(٣) كتب الفرق والملل.
(٤) شرح الأصول الخمسة (٧٦٨ ـ ٧٦٩).

ثم أي فائدة للوحي مادام أن العقل هو الحاكم عليه.

الثاني: مذهب المشبهة وهم الذين بالغوا في إثبات الصفات حتى شبهوا صفات الله عز وجل بصفات خلقه.

ثم ظهر هناك مذهب ثالث أراد أن يوفق بين مذهب المعتزلة ومذهب أهل السنة والجماعة كان زعيمه (عبدالله بن كلاّب)[1] الذي أثبت بعض الصفات ونفى البعض الآخر، وتابعه في ذلك أبو الحسن الأشعري ثم رجع الأشعري في آخر حياته إلى مذهب السلف كما هو مبين في كتبه كالمقالات والإبانة وغيرهما.

والأشعرية اليوم، ليسوا على مذهب الأشعري، بل على مذهب ابن كلّاب حيث يثبتون بعض الصفات وهي (العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام والحياة) سبع صفات فقط، مع العلم بأنهم يوافقون المعتزلة في أن القرآن لم يتكلم به الله عز وجل وإن زعموا أنهم يثبتونه ولهم في معنى الكلام المثبت تصور منحرف.

ثم يؤلفون بقية الصفات الأخرى كالاستواء والمحبة والبغض والرضا والغضب وما إلى ذلك[2].

هذه هي المذاهب التي تكونت مخالفة لمذهب السلف والأخير منها أقرب إلى أهل السنة والجماعة ولكنهم مخالفون في أمور كثيرة كما يتبين ذلك من مؤلفاتهم.

وبعد هذا العرض الموجز نبين مذهب أهل السنة والجماعة وموقفهم من هذه المذاهب باختصار.

منهج السلف في الأسماء والصفات

(أ) تعريف السلف:

إذا أطلق السلف فالمراد بهم أصحاب رسول الله ﷺ ومن سار على طريقهم ـ وهم أعلام الأمة المشهورون، وفيما يلي نورد بعضاً من علماء القرون الثلاثة المفضلة:

---

(١) راجع الفتاوى لابن تيمية ٦: ٣٦٧، ٣٦٨، ٥٢١، ٥٢٢). ومقالات الإسلاميين (١: ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) راجع مقالات الإسلاميين (١: ٣٤٥ ـ ٣٥٠).

من التابعين من أهل المدينة:

سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبدالله بن عمر، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين بن علي وابنه محمد، وعمر بن عبد العزيز وزيد بن أسلم. ومحمد بن مسلم الزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وجعفر الصادق، ومالك بن أنس، وابن الماجشون.

ومن أهل مكـة:

عطاء وطاووس ومجاهد، وابن أبي مليكه، وعمرو بن دينار، وابن جريج، وابن عيينة، والفضيل بن عياض، والشافعي، والحميدي.

ومن أهل الشام:

رجاء بن حيوه، وعبدالله بن محيريز، وميمون بن مهران، والأوزاعي وابن شوذب.

ومن أهل مصر:

حيوة بن شريح والليث بن سعد وعبدالله بن وهب، والمزني، والبويطي.

ومن أهل الكوفـة:

علقمة والشعبي وإبراهيم النخعي ومالك بن مغول والثوري وأبو نعيم وأبو بكر بن أبي شيبة وأخوه عثمان.

ومن أهل البصرة:

أبو العالية والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وابن المديني، والتستري.

ومن أهل بغداد:

أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو ثور، والطبري.

ومن أهل خراسان:

عبدالله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن نصر المروزي، والسرخسي، والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن خزيمة.

هذه بعض أسماء أئمة السلف وقد ذكر اللالكائي رحمه الله في أول كتابه[1] **مائة وخمسين عالماً، ثم في موضع آخر خمسمائة وخمسين شخصاً من علماء الأمة ممن عاشوا في القرون الثلاثة المفضلة كلهم على مذهب أهل السنة والجماعة. هذا ليعلم أن المذاهب المنحرفة كانت شاذة في المجتمع الإسلامي ومخالفة لمنهج المسلمين.**

(ب) منهج السلف في إثبات الصفات:

مذهب السلف هو ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم فيثبتون كل الصفات التي وردت في كتاب الله عز وجل، أو في السنة الصحيحة، ولا يردون شيئاً منها أو يؤولونه لأنهم يعتقدون أن صفات الله عز وجل لا تشابه صفات خلقه، كما أن ذاته المقدسة لا تشابه ذوات خلقه فصفاته تليق به عز وجل.

والمنهج الذي سار عليه السلف في فهم العقيدة هو ما يلي:

(١) إثبات كل الصفات الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة.
(٢) عدم رد شيء منها أو تأويله.
(٣) عدم تحكيم العقل في أمور العقيدة.
(٤) اعتقاد مخالفة صفات الله لصفات خلقه.

(جـ) منهج السلف في الرد على المذاهب المنحرفة:

أولاً ـ الرد على المعتزلة الذين يؤلون آيات الصفات على غير معناها، ويثبتون أسماء الله عز وجل بزعم أن في إثبات الصفات مشابهة للمخلوقات فقال علماء السلف:

(١) إن المعتزلة ـ وكذلك بقية الطوائف المنتسبة للإسلام يقولون: إن لله ذاتاً وأسماء لا تشبه ذوات خلقه ولا أسماءهم: فيقال لهم وكذلك له صفات لا تشبه صفات خلقه إذ أن التفريق بين الأمرين لا دليل عليه.

(٢) إن كلام الله سبحانه وتعالى هو أفصح الكلام وأبلغه كما قال تعالى ﴿ **ونزلنا**

---

(١) كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١: ٢٩ ـ ٤٩) وراجع (١: ٢٣٤ ـ ٣١٢).

عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرىٰ للمسلمين ﴾[1] وصرف ألفاظه عن ظاهرها إلى معان أخرى يقتضي خلاف ذلك، واتهام الله عز وجل بالعجز عن البيان ـ سبحانه عما يقول الظالمون، ثم يزعمون أن البشر من الفلاسفة والمتكلمين أقدر منه عز وجل على البيان فيحمل كلامه سبحانه وتعالى على غير ظاهره، وهذا فوق أنه كفر صريح، سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى.

(٣) إن المبلغ عن الله عز وجل، وهو الرسول ﷺ، أفصح البشر وأحرصهم على ما ينفعهم فيستحيل مع هذا أن يبلغهم كلام ربهم ثلاثة وعشرين عاماً وهو يريد معاني أخر من كلامه، ثم لا يبين لهم والله عز وجل يقول ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ﴾**[2].

(٤) إن أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا أفصح الأمة، وأحرصهم على معرفة دينهم، وقد كانوا يسمعون كلام الله عز وجل ثلاثة وعشرين عاماً وهو مملوء بذكر صفات الله سبحانه وتعالى ولم يستشكلوا شيئاً منها لعلمهم بأن معناها على ظاهرها، بما يليق في حق ربهم سبحانه وتعالى ولو كان خلاف ذلك لنقل عنهم[3].

ثانياً ـ الرد على المشبهة الذين أساؤا فهم آيات الصفات فلم يفرقوا بين صفات الخالق والمخلوق لاشتراك الصفتين في الإسم.

قال علماء السلف:

(١) إن الله سبحانه وتعالى خالق الخلق، وموجد الكون وهو الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، والخلق موجود من العدم ويلحقه النقص في ذاته وصفاته وأفعاله فكيف يسوى بين خالق كامل سبحانه ومخلوق ناقص. تعالى الله عن جهل الجاهلين وفهم المنحرفين.

(٢) يقول سبحانه وتعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾**[4] وهم يقولون بل هو مثل خلقه ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد ﴾**[5] وهم

---

(١) النحل، من الآية ٨٩.
(٢) النحل، من الآية ٤٤.
(٣) راجع مختصر الصواعق المرسلة (أوائل الجزء الأول).
(٤) سبقت.
(٥) الإخلاص، الآية ٤.

يقولون بمشابهة صفاته لصفات خلقه وهذا يقتضي وجود كفو وشبيه به سبحانه عز وجل وتعالى عما يقولون».

وهذا القول قد اندثر القائلون به،إذ قليل العقل يكفي لمعرفة بطلانه.

ثالثاً ـ الرد على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون البعض الآخر بزعم أن المؤول فيه مشابهة.

قال علماء السلف:

(١) كما أنكم تقولون إن له ذاتاً وأسماء وصفات معدودة لا تشبه ذوات الخلق ولا أسماءهم ولا صفاتهم فقولوا في المؤول مثل ما قلتموه في المثبت إذ هذا تفريق بمجرد الظن والظن لايغني من الحق شيئاً.

(٢) ويرد عليهم كذلك بما تقدم في الرد على المعتزلة لمشابهتهم لهم في هذا الأمر.

(٣) ويرد على الجميع بما تقدم في أول المبحث من أن العقل عاجز عن إدراك الأمور الغيبية بنفسه استقلالاً لخضوعه للمعلومات الحسية.

نماذج من أقوال أهل السنة والجماعة في تفسير آيات الصفات

ولكي يتضح منهج أهل السنة في تفسير النصوص الواردة في صفات الله عز وجل نورد هنا مجموعة من كلامهم في إحدى صفات الله عز وجل التي نطق بها الكتاب والسنة ألا وهي:

«الاستـــواء»

ورد إثبات الاستواء في سبع آيات من كتاب الله كقوله عز وجل ﴿ **الرحمٰن على العرش استوى** ﴾[1] ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾[2]... ونحو ذلك.

قال مالك بن أنس: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال

---

(١) سبقت.

(٢) يونس، من الآية ٣.

عنه بدعة).

وقال أبو حنيفة ـ جواباً لمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟ فقال: (فقد كفر: لأن الله يقول ﴿ **الرحمٰن على العرش استوى** ﴾. وعرشه فوق سبع سمٰوات) وقال: (إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر).

وقال علي بن المديني ـ عن مذهب الجماعة ـ (يؤمنون بالرؤية والكلام وأن الله فوق السمٰوات على العرش استوى).

وقال الترمذي: (هو على العرش كما وصف نفسه في كتابه وعلمه وقدرته وسلطانه في كل مكان).

وقيل لابن المبارك: بماذا نعرف ربنا؟ قال: (إنه فوق السماوات على عرشه بائن من خلقه).

وقال أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي زمنين في كتابه ـ أصول السنة: (ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه)[1].

وأخيراً: نسأل الله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) جميع هذه النقولات من كتاب الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ وقد استطرد في نقل أقوال العلماء فليراجع/ ١١٠/ من مجموع النفائس.